

أضواء البيان

@ 187 فَقَدَ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ { ، أي : إن تطلبوا الحكم بهلاك الظالم منكم ، ومن النبي صلى الله عليه وسلم فقد جاءكم الفتح ، أي : الحكم بهلاك الظالم وهو هلاكهم يوم بدر ؛ كما قاله غير واحد . وقد ذكروا أنهم لما أرادوا الخروج إلى بدر ، جاء أبو جهل ، وتعلق بأستار الكعبة ، وقال : اللّاهمّ إنا قطان بيتك نسقي الحجيج ، ونفعل ونفعل ، وإن محمدًا قطع الرحم وفرّق الجماعة ، وعاب الدّين ، وشم الآلهة ، وسفّه أحلام الآباء ، اللهم أهلك الظالم منّا ومنه ، فطلب الحكم على الظالم ، فجاءهم الحكم على الظالم فقتلوا ببدر ، وصاروا إلى الخلود في النار ، إلى غير ذلك من الآيات . .

وعلى قول من قال من أهل العلم : إن المراد بالفتح في الآية الحكم والقضاء بينهم يوم القيامة ، فلا إشكال في قوله تعالى : { قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِيْمَانُهُمْ } ، وعلى القول بأن المراد بالفتح في الآية الحكم بينهم في الدنيا بهلاك الكفار ، كما وقع يوم بدر . فالظاهر أن معنى قوله تعالى : { قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِيْمَانُهُمْ } ، أي : إذا عاينوا الموت وشاهدوا القتل ، بدليل قوله تعالى : { فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرُوا بِنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمَّ يَكُ يَنْفَعُهُمْ } . وإيمانهم لمّا رأوا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللّٰهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ } ، وقوله تعالى : { وَالْيَسْتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِنَّ } ، وقوله تعالى في فرعون : { حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنْزَاهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * الْإِنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } . ولا يخفى أن قول من قال من أهل العلم : إن الفتح في هذه الآية فتح مكة أنه غير صواب ، بدليل قوله تعالى : { قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِيْمَانُهُمْ } ومعلوم أن فتح مكة لا يمنع انتفاع المؤمن في وقته بإيمانه ، كما لا يخفى . { فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظِرُوا } . جاء معناه موضحًا في آيات أخر ؛ كقوله تعالى : { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُتَرَبَّصِينَ } ، ومعلوم أن التربص هو الانتظار . وقوله تعالى : { قُلْ

انتظروا ° إِنْزَالَ مُنْتَظِرُونَ { ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .